**المحاضرة السابعة: البلاغة العربية القديمة النشأة والتطور**

1. **مفهوم البلاغة:**

* **لُغةً:** مِنْ بلَغتُ الغايةَ: إذا انتهيْتَ إليها، ومَبلَغُ الشَّيءِ: مُنتَهاه، والمُبالغةُ في الشَّيءِ: الانْتهاءُ إلى غايتِه فسُمِّيتِ البَلاغةُ بَلاغةً؛ لأنَّها تُنهي المَعنى إلى قَلْبِ السَّامعِ فيَفهمُه[[1]](#footnote-1)
* **اصطلاحًا:** من الناحية الاصطلاحية نورد هذه التعريفات:

عقَد الإمامُ القَيرَوانيُّ في كتابِه ((العُمْدَة)) بابًا أورَدَ فيه أقْوالًا لبعضِ العُلَماءِ في تَعْريفِ البَلاغةِ؛ منها: (سُئِل بعضُ البُلَغاءِ: ما البَلاغةُ؟ فقال: قليلٌ يُفهَمُ، وكثيرٌ لا يُسأَمُ.

وقال آخَرُ: البَلاغةُ إجاعَةُ اللَّفظِ، وإشباعُ المَعنى.

وسُئل آخَرُ فقال: مَعانٍ كثيرةٌ في ألْفاظٍ قليلةٍ.

وقِيل لأحدِهم: ما البَلاغةُ؟ فقال: إصابةُ المَعنى وَحُسْنُ الإيجازِ.

وسُئل بعضُ الأعرابِ: مَنْ أبلغُ النَّاسِ؟ فقال: أسْهلُهم لفْظًا، وأحسنُهم بَديهةً.

وقال خلفٌ الأحمرُ: البَلاغةُ كَلمةٌ تكشِفُ عن البقيَّةِ.

وقال المُفضَّلُ الضَّبِّيُّ: قلتُ لأعْرابيٍّ: ما البَلاغةُ عندَكم؟ فقال: الإيجازُ مِن غيرِ عَجْزٍ، والإطْنابُ مِن غيرِ خطَلٍ.

وكتب جعفرُ بنُ يحيى بنِ خالدٍ البَرْمكيُّ إلى عَمْرِو بنِ مَسْعدةَ: إذا كان الإكثارُ أبْلغَ كان الإيجازُ تَقْصيرًا، وإذا كان الإيجازُ كافيًا كان الإكْثارُ عِيًّا.

قال أبو الحَسنِ عليُّ بنُ عيسى الرُّمَّانيُّ: أصْلُ البَلاغةِ الطَّبعُ، ولَها معَ ذلك آلاتٌ تُعينُ عليها، وتُوصِلُ للقوَّةِ فيها، وتكونُ مِيزانًا لَها، وفاصِلةً بينَها وبينَ غيرِها.

وسُئل ابنُ المُقَفَّعِ: ما البَلاغةُ؟ فقال: اسمٌ لِمَعانٍ تَجري في وُجوهٍ عدَّةٍ كثيرةٍ؛ فمِنها ما يكونُ في السُّكوتِ، ومِنها ما يكونُ في الاسْتِماعِ، ومِنها ما يكونُ في الإشارةِ، ومِنها ما يكونُ شِعرًا، ومِنها ما يكونُ سَجْعًا، ومِنها ما يكونُ ابْتداءً، ومِنها ما يكونُ جَوابًا، ومِنها ما يكونُ في الاحْتِجاجِ، ومِنها ما يكونُ خُطَبًا، ومِنها ما يكونُ رسائِلَ؛ فعامَّةُ هذه الأبوابِ الوَحْيُ فيها والإشارةُ إلى المَعنى، والإيجازُ هو البَلاغةُ)[[2]](#footnote-2)

1. **نشأة البلاغة:** لم تكن البلاغة وليدة اللحظة إنما مرّت في نموها وتطورها بمراحل مختلفة عبر الزمن نلخصها فيما يلي:
2. **البلاغة في العصرين الجاهلي والإسلامي**: عرف العرب بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقد بلغوا في الجاهلية درجة رفيعة من البلاغة والبيان وقد صوّر القرآن ذلك في آيات عديدة وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة 204.

ومن أكبر الدلائل على أنهم بلغوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وحجته الدالة على نبوته القرآن، حيث دعاهم إلى معارضته، وتحداهم بأن يأتوا في بلاغته الباهرة، وهي بلا شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان، وعلى بصرهم بتمييز أقدار المعاني والألفاظ وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير .

1. **البلاغة في عصر صدر الإسلام :** لاشك أن للقرآن تأثيراً عظيماً في نشأة البلاغة وتطويرهما فقد عكف العلماء على دراسته وبيان أسرار إعجازه، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي فاتخذوا آياته شواهد على أبواب البلاغة واعتبروها مثالاً يحتذى في جمال النظم ودقة التركيب .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما نعلم كان أفصح العرب . كما كان شديد الاهتمام والعناية بالشعر والشعراء يحرص على سماعهم والإشادة بشعرهم من ذلك قوله لحسان رضي الله عنه " قل وروح القدس يؤيدك " وقوله عندما سمع قول النابغة الجعدي .

**بلغنا السماء مجدنا وجدودنا..... وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً**

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أين المرتقى يا أبا ليلى : فقال إلى الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لا فض فوك " .

وقد ظلت وفود العرب تختلف في عهد الخلفاء الراشدين إلى المدينة وتجمعهم أنديتها فيخوضون في شعراء الجاهلية والشعراء والمخضرمين وينظرون في الشعر والخطب ويجرون المفاضلات بين الشعراء والخطباء وقد كان الخلفاء يخوضون في ذلك ولهم مشاركات في النقد من ذلك ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا عافاك الله فقال له أبوبكر : علمتم لوكنت تعلمون قل لا وعافاك الله " وقد كانت لعمر وعلي رضي الله عنهما مساهمات في النقد ، فقد كان عمر بن الخطاب من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة من ذلك قوله " الشعر علم قوم لم يكن له علم أعلم منه"

1. **البلاغة في عصر بني أمية** : في عصر بني أمية كثرت الملاحظات النقدية كثرة عظيمة عملت فيها بواعث وأسباب كثيرة منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار ، وازدهار العلوم ورقيها مما أدى إلى رقي الحياة العقلية للأمة الإسلامية .حيث أخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية والعقدية فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون، والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات البيانية المتصلة بالكلام لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل وفي مجال الشعر والشعراء بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه .

وفي هذا العصر نشطت حركة النقد سواء في مجال مجالس الخلفاء والولاة أو في الأندية الأدبية كسوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة حيث كان الشعراء يجتمعون في هذه الأسواق لينشدوا الناس خير ما صاغوه من الشعر .

1. **البلاغة في العصر العباسي:** لا تكاد تصل إلى العصر العباسي حتى أخذت الملاحظات البلاغية تزدهر ازدهارا عظيماً وتصطبغ بصبغة علمية وقد كان لذلك أسباب عديدة منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتين من المعلمين عنيت إحداهما باللغة والشعر وهي طائفة اللغويين والنحاة ، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة وهي طائفة الأدباء .

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نمو البحث البلاغي وإزهاره وتطوره فكثرت الملاحظات البلاغية بدءاً بسيبويه إمام النجاة وانتهاء بإمام البلاغيين، عبد القاهر الجرجاني الذي اكتمل صرح البلاغة على يديه فوضع أصولها وأرسى قواعده حتى غدت البلاغة علماً مستقلاً .

1. ينظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) لأبي هلال العسكري (ص: 6). [↑](#footnote-ref-1)
2. ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) للقيرواني (1/ 242، 243). [↑](#footnote-ref-2)